درس ادبي تاريخي
بقلم جبرائيل جبّور
احد اساتذة الادب العربي في جامعة بيروت
الاميركية

١٠

سبب تأليفه العقد وزمنه وطريقته

اما سبب تأليفه فالظاهر من مقدمة الكتاب انه دافع علمي ادبي ، حيث يذكر صاحبه انه رأى بعض اهل العلم قبله ممن بحثوا في مثل هذه الامور التي تعرض لها في عقده اكثروا واطالوا، ورأى البعض الآخر اساءوا الاختيار والجمع والتبويب فجعل كتابه كافياً جامعاً مبوباً مرتباً[1] . ويذهب بعض المتأخرين ، ولا ندري الى اي مرجع يستندون ، الى انه ألفه ، لعبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر المتوفى سنة ٣٥٠[2] ولا يفوتنا ان نعد هنا ما ذكرنا مرة من ان ارجوزة ابن عبد ربه في العروض ، وهي جزء من كتاب كتب العقد ، قد اهداها الى الامير عبد الله المتوفى سنة ٣٠٠

اما زمن بدء تأليفه او جمعه فلا نعلمه بالضبط ، اذ فيه من الشعر الذي نظمه ابن عبد ربه ما يرجع الى قبل سنة ٣٠٠ كما اسلفنا وفيه ما يستمر عهده

---

١) راجع ابن عبد ربه ١ : ٢-٣

٢) المقتطف المجلد ٢٩ (سنة ١٩٠٤) يوليو (ص ٥٨٨ ، مقال محمد كرد علي

الى سنة ٣٢٢ [1]. وهناك ذكر للخليفة عبد الرحمن الناصر يتبعه بامير المؤمنين[2] مما يدلّ على ان هذا النعت ان لم يكن من وضع المتأخرين فقد وضعت اخبار صاحبه بعد سنة ٣٠٧، السنة التي لقب فيها الناصر بامير المؤمنين[3]. وفي تضاعيف العقد ما يظهر انه كان يجمع اخباره كلها ويبوبها بحيث يقع كل خبر تحت باب خاص وضعه له. وترى في ما يأتي دليلًا على ما نقول، قال ابن عبد ربه: «هذا ما ذكرنا في كتابنا من الخطب للحجاج وما بقي منها فهي مستقصاة في كتاب اليتيمة الثانية حيث ذكرت اخبار زياد والحجاج.. وانما مذهبنا في كتابنا هذا ان نأخذ من كل شيء أحسنه ونحذف الكثير الذي يستجزأ منه بالقليل[4].» اما اليتيمة الثانية فانها تقع بعد الكتاب الذي اخذنا منه هذه العبارة. كذلك ذكر مثلًا في الكتاب الاول من عقده «اللؤلؤة في السلطان» ثم اعقبه بقوله: «وهذا مثل وقد وقع تفسيره في كتاب الامثال.» [5] وكتاب الجوهرة في الامثال انما هو الكتاب السابع من كتب العقد الخمسة والعشرين.

اختصار العقد

ولقد اختصر العقد – فيما يذكر حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون. (طبعة اوربة ٤: ٢٣٢)، والسيوطي في كتابه بغية الوعاة... (صفحة ١٨٢ وصفحة ١٠٦) – اثنان اولهما ابو اسحق ابرهيم بن عبد الرحمن الوادي آشي القيسي المتوفى حول سنة ٥٧٠ه، وهو فيما يظهر من اسمه اندلسي من وادي آش (Guadix) من مقاطعة غرناطة، وثانيهما جمال الدين ابو الفضل محمد بن مكرم الانصاري الخزرجي، وهو ابن منظور الشهير مؤلف معجم لسان العرب المتوفى سنة ٧١١ه. وقد روى السيوطي ان الاخير اختصر كثيراً من كتب الادب المطولة عدا العقد كالاغاني والذخيرة ومفردات ابن البيطار ونقل ان مختصراته ٥٠٠ مجلد[6].

---

١) ابن عبد ربه ٣: ٢٧٧ ٢) ابن عبد ربه ٣: ٢٦٢
٣) المقري ج ١: ١٦٦ رج ١: ٢٧٧ طبعة اوربة
٤) ابن عبد ربه ٣: ١٨٨ ٥) ابن عبد ربه ١: ٢٢
٦) السيوطي ١٠٦

ولا اعلم هل لهذين الكتابين اثر الآن. ويظهر من فهرس كتب آداب اللغة العربية الموجودة في دار الكتب بالقاهرة (٣: ٣٤٤) ان هناك نسختين لمختصر كتاب العقد كلتاهما نسبت لمجهول (احد الفضلاء) الواحدة يرجع تاريخ الفراغ من كتابتها الى سنة ٩٩١ هـ. والاخرى الى سنة ١٠٣٦ هـ. فهل لاي من هاتين النسختين علاقة باحد من المختصرين المذكورين؟

وقد عمدت لجنة من بعض ادباء مصر[1] فاختارت بعض الابواب والفصول منه وجمعتها في كتاب سمته مختار العقد بين يدينا الآن الطبعة الثالثة منه، وتاريخها سنة ١٩١٣ م وقد طبعت في المطبعة الجمالية بمصر.

الناقلون عن العقد

اما الناقلون عن العقد فهم فيما نظن كثر يصعب حصرهم. غير اننا نودّ ان نشير هنا الى ان الابشيهي المتوفى بعد سنة ٨٥٠ هـ. قد نقل كثيراً عن العقد في كتابه «المستطرف في كل فنّ مستظرف» وقد نبّه الى ذلك في مقدمة كتابه قال: «ونقلت فيه كثيراً مما نقله ابن عبد ربه في كتابه...»[2] والغريب ان الابشيهي لم ينقل ما نقله ابن عبد ربه فحسب بل سطا على كلام ابن عبد ربه في فرش بعض الكتب، فنقله بالحرف ايضاً واسند الكلام فيه الى نفسه لا الى ابن عبد ربه[3].

وذكر البغدادي (الشيخ عبد القادر بن عمر) في كتابه «خزانة الادب ولب لباب لسان العرب» انه استند الى بعض كتب ترجع الى فن الادب منها العقد الفريد لابن عبد ربه[4].

كذلك قد رجع ابن خلدون الى العقد في اكثر من موضع في مقدمته[5] ولم يفت القلقشندي ان يأخذ كثيراً عن العقد وقد اشار الى ذلك في كثير من المواضع[6].

---

١) الاساتذة: الشيخ عبد الحكيم محمد، والشيخ عبد الخالق عمر، والشيخ عبدالعزيز خليل، والشيخ محمد الخضري ٢) الابشيهي ١: ٢

٣) الابشيهي ٢: ١٧٦، وقابله بابن عبد ربه ٣: ٢٢٩

٤) ج ١: ١٠، طبعة بولاق سنة ١٢٩٩ هـ

٥) ص ٣٠ و١٧ ٦) ١: ٢٦٢؛ و ٩: ٢٦٢ وغيرها

في نسخ العقد الخطية

اما نسخ العقد الخطية فهي ، فيما يظهر من كتاب بروكلمن في تاريخ آداب اللغة العربية ، كثيرة جداً منها اثنتان في برلين ، وثلاث في غوطه ، وواحدة في المجموعة الرفاعيـة لفليشر ، وواحدة في ڤينـا ، وواحدة في منشن ، واربع في مكتبة بودليان ، وثلاث في المتحف البريطاني ، واثنتان في الاسكوريال بمدريد ، وخمس في باريس ، وواحدة في بطرسبرج ، وواحدة في (Mel.as.) ، وواحدة في مكتبة ميلانو الايطالية . وهناك اثنتا عشرة نسخة في الاستانة منها ست في مكتبة ايا صوفيا ، واثنتان في مكتبة نوري عثمانية ، وواحدة في مكتبة راغب باشا ، وثلاث في مكتبة كوبريلي[1]

ومع ان بروكلمن لم يشر الى وجود نسخة ما بالقاهرة بل اكتفى بالاشارة الى سنوات طبع العقد فيها ، فانا نظنّ انه لا بد من وجود بعض النسخ . وليس من الضروري ان يكون عدد النسخ بعدد الطبعات اذ يجوز ان التـاشرين المتأخرين نقلوا عن الطبعة القديمة . والذي يظهر من الطبعة الاولى سنة ١٢٩٣ انها اخذت عن نسخة خطية للشيخ عبد العزيز محاسن[2] الـذي يظهر ايضاً انه رتب فهرسها للمواضيع على الطريقة التي هي عليهـا الآن . ويجوز ان يكون هذا قد نقلها عن احدى نسخ الاستانة . ويظهر من فهرس دار الكتب بالقاهرة ان ليس في الدار نسخة خطية تامة من العقـد ، انما يوجـد عدة اجزاء صغيرة مختلفة اشرنا الى بعضها في غير هذا الموضع[3].

في طبعات العقد ، وترجمة بعض اقسامه

لقد طبع العقد في مصر ٥ مرات اولاهـا ببولاق سنة ١٢٩٣ هـ . ثم في المطبعة العثمانية سنة ١٣٠٢هـ ، ثم في المطبعة الشرفية سنة ١٣٠٥هـ . ثم تكرر طبعه في المطبعـة الاخيرة ايضاً سنة ١٣١٦ ، واخيراً في المطبعة الازهرية سنة

١) بروكلمن ١ : ١٥٥

٢) ابن عبد ربه ١ : ٢ من جدول الفهرس باول الكتاب

٣) راجع فهرس الآداب ٣ : ٢٥٢–٢٥٣

١٣٣١ هـ . وقد ذكر الاستاذ فؤاد افرام البستاني في « روائعه »[1] ان الافرنج قد سبقوا ادباء العصر الى معرفة هـذا الكتاب ، وان المستشرق الفرنساوي تورنيل (Tournel) قد نقل الى لغته بعض المقاطع المختصة باحوال قدماء العرب ونشرها في باريس بعنوان: «*Lettres sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme.*» سنة ١٨٣٦ و١٨٣٧ و١٨٣٨ . واشار الى ان المستشرقين لم يطبعوا النص العربي.

آراء بعض المقدمين في العقد

مرّ معنا شيء من تعرّض الصاحب بن عباد للعقد ونقده اياه وقوله « هذه بضاعتنا رُدّت الينا » . ويظهر ان اكثر الذين نعوا على ابن عبد ربه عقده قد قصدوا الى هذه الناحية التي انتقدها الصاحب بن عباد ، اي عدم ذكر صاحبه اخبارًا كثيرة عن الاندلسيين . فقد ذكر المقّري ان ابا علي التنيسي القيرواني ذكر لابن حزم الاندلسي في رسالة تعرّض فيها للاندلسيين ابن عبد ربه صاحبنا فاثنى على عقده ثناء قليلًا ثم قال: « انه يلحقه فيه بعض اللوم لاسيما اذ لم يجعل فضائل بلده واسطة عقده ومناقب ملوكه يتيمة سلكه اكثر الجزّ واخطأ المفصل واطال الهزّ لسيفٍ غير مقصل وتعد به ما قصد باصحابه من ترك ما يعنيهم واغفال ما يهمهم »[2]

ويذكر المقّري في موضع آخر ان القلفاط الشاعر معاصر ابن عبد ربه كان يتعرّض لابن عبد ربه ويهجوه ويسمي كتاب العقد حبل الثوم[3] . واذا استثنينا هؤلاء نرى سائر المؤرخين والادباء يثنون على العقد وصاحبه خير ثناء.

هل لابن عبد ربه كتب غير العقد؟

والجواب نعم . والغريب اننا ، اذا استثنينا حاجي خليفة ، نرى ان كل

---

١) بستاني عدد ٨ : ج ١ ، ص و — ز

٢) المقّري (اوربة) ٢ : ١٠٦ ، وطبعة مصر ٢ : ٧٦٧

٣) » » ٢ : ٢٠٥ » » ٢ : ٨٢٢ ، غير ان الرواية في الطبعة المصرية مشوشة.

الذين تصدّوا لذكر شيء عن ابن عبد ربه من القدماء والمحدثين لم يلتفتوا الى هذا الامر . ولقد ذهب المرحوم جرجي زيدان الى ابعد من السكوت فصرح انه ليس لابن عبد ربه سوى العقد[1] . اما حاجي خليفة فقد ذكر في كتابه « كشف الظنون » كتاباً لابن عبد ربه غير العقد هو « اللباب في معرفة العلم والآداب » ثم قال : « للشيخ العلّامة احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي المتوفى سنة ٣٢٨ ه اوله : الحمد لله على كل حال الخ »[2] وظاهر من كلام حاجي خليفة ان لا مجال يدفعنا الى ان نظن ان المؤلف غير صاحبنا .

٤

نثره

لم يترك لنا ابن عبد ربه آثاراً كثيرة من نثره . ومن يظنّ ان لغة العقد تمثل نثره فقد أخطأ . ذلك لان العقد مجموعة اخبار في مختلف العلوم والفنون نقلت عن رواة من عصور مختلفة روعيت في رواياتها المحافظة على الاصل من حيث صوغ العبارة . ولم يكن لابن عبد ربه فيها ، كما صرّح هو نفسه ، سوى فضل الاختيار وحسن الاختصار ، وما سواهما فمأخوذ من اقوال العلماء والادباء . ولقد يدلّ هذا التصريح من ابن عبد ربه على انه كان يرجع الى كتب دوّنت ينقل عنها ، وانه لم يأخذ عن احد شفاهاً بحيث يضطرّ الى سبك الخبر بلغته . ولعل المواضع الوحيدة في صلب عقده التي يصحّ لنا ان نظنّ انه حاك عبارتها بلفظه هي تلك الاخبار التي دوّنها عن امراء الاندلس ولاسيما المتأخرين منهم كالمنذر بن محمد ، وعبد الله ، والخليفة الناصر ؛ وتلك التي نقلها شفاهاً عن اساتذته بقي بن مخلد ، وابن وضاح ، والخشني ، وقليلة ما هي ! غير ان صاحب العقد قد صدّر كتابه بمقدمة من انشائه ، وفرش لدار كل كتاب من كتب العقد الخمسة والعشرين بتوطئة من نثره دون ان يفوته التنبيه الى ذلك . زد

---

١) زيدان ٢ : ١٧٤

٢) حاجي خليفة (طبعة اوربة) ٥ : ٢٠٣

على هذا كله انه لم يخلُ العقد من بعض مواضع عثرنا فيها على عبارات مقتضبة وجيزة يقتضي سياق الكلام فيها ان تكون من صوغه.

وزى — اذا جاز لنا ان نحكم من هذا القدر القليل الذي بين ايدينا — ان انشاء ابن عبد ربه يمتاز بالوضوح اذا قورن بانشاء ابي الفرج الاصبهاني صاحب كتاب « الاغاني » الكبير ، وبالرقة من حيث اللفظ ، والترتيب من حيث المعنى اذا قوبل بنثر الجاحظ . ولعله اشبه باسلوب ابن قتيبة وانته . ولا عجب فقد اكثر ابن عبد ربه من الدرس في كتب ابن قتيبة ، واكثر من الاخذ عنها . ولقد مرّ معنا انه كان يتأثر ابن قتيبة في طريقته وانّ عقده ، لولا قليل ، لكان معارضة لعيون اخباره . ولعلّ من الخير ان نظهرك على قطع من انشائها ، ولتكن من مقدّمتي هذين الكتابين قال ابن عبد ربه :

« وتطلبت نظائر الكلام ، واشكال المعاني ، وجواهر الحكم ، وضروب الادب ، ونوادر الامثال ، ثم قرنت كل جنس منها الى جنسه ، فجعلته باباً على حدته . ليستدلّ الطالب للخبر على موضعه من الكتاب ، ونظيره من كل باب ، وقصدت من جملة الاخبار ، وفنون الاثار ، الى اشرفها جوهراً ، واظهرها رونقاً ، والطفها معنى ، واجزلها لفظاً ، واحسنها ديباجة ، واكثرها طلاوة وحلاوة . » (١

وقال ابن قتيبة :

« نظمتها لتقل التأدب تبصرة ، ولاهل العلم تذكرة ، ولسائس الناس وسوسهم مؤدباً ، وللملوك مستراحاً من كدّ الجدّ والتعب ، وصنتها ابواباً ، وقرنت الباب بشكله ، والخبر بمثله ، والكلمة باختها ، ليسهل على المتعلم علمها ، وعلى الدارس حفظها ، وعلى الناشد طلبها ، وهي لقاح عقول العلماء ، ونتاج افكار الحكماء ، وزبدة المخض ، وحلية الادب واثمار طول النظر . » (٢

وقال ابن عبد ربه في موضع آخر من المقدمة :

« وقد نظرت في بعض الكتب الموضوعة ، فوجدتها غير متفرقة في فنون الاخبار ، ولا جامعة لجمل الآثار ، فجعلت هذا الكتاب كافياً جامعاً لاكثر المعاني التي تجري على افواه العامّة والخاصة ، وتدور على السنة الملوك والسوقة ، وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر ، تجانس الاخبار في معانيها ، وتوافقه في مذاهبها . » (٣

---

١) ابن عبد ربه ١ : ٢

٢) ابن قتيبة ١ : صفحة ى

٣) » » ١ : ٤

وقال ابن قتيبة في مقدمة كتابه :

«ولم أرَ صواباً ان يكون كتابي هذا وقفاً على طالب الدنيا دون طالب الآخرة ولا على خواص الناس دون عوامهم ولا على ملوكهم دون سوقتهم ، فوفيت كل فريق منهم قسمه ، ووفّرت عليه سهمه ، واودعته طرفاً من محاسن كلام الزهّاد في الدنيا ، وذكر فجائعها والزوال والانتقال ، وما يتلاقون به اذا اجتمعوا ، ويتكاتبون به اذا افترقوا ، في المواعظ والزهد والصبر والتقوى واليقين واشباه ذلك ، لعلّ الله يعطف به صادفاً ، ويواطر على التوبة متجافياً ، ويردع ظالماً ويلين برقائقه قسوة القلوب.» (١

ولعل كلا ابن عبد ربه وابن قتيبة قد تأثر بالجاحظ من ناحية استعمال الجمل المقتضبة الوجيزة المتوازنة بعضها مع بعض ، والتي لم يلتفت فيها كثيراً الى السجع ، ولكنها لم يبلغا مبلغه ولم يوفقا توفيقه . ويظهر ان ابن عبد ربه قد امتاز على ابن قتيبة في رقة العبارة وسلاستها رغم ان الفرق قليل ، ولعله ايضاً قد وفق اكثر من رفيقه في التأثر بالجاحظ من حيث قصر العبارات واقترانها بعضها مع بعض ، وربما من الخير ان نقابل ما ذكرنا لكليهما مع ما سيأتي للجاحظ .

قال في مقدمة كتابه « المحاسن والاضداد » :

« الكتاب نعم الذخر والعدة ، والجليس والصدة ، ونعم النشرة ، ونعم النزهة ، ونعم المشتغل والحرفة ، ونعم الانيس ساعة الوحدة ، ونعم المعرفة ببلاد الغربة ، ونعم القرين والدخيل والزميل ، ونعم الوزير والنزيل ، والكتاب وعاءٌ ملئ علماً وظرفٌ حشي ظرفاً ، واناءٌ شُحنَ مزاحاً ، ان شئت كان اعيا من باقل وان شئت كان ابلغ من سحبان وائل ، وان شئت سرتك نوادره ، وشجنك مواعظه ، ومن لك بواعظ ملهٍ ، وبناصك فاتكٍ ، وناطق أخرس . . . ومن لك بشيء يجمع الاول والاخر ، والناقص والوافر ، والشاهد والغائب .» (٢

ومهما يكن من الامر فاننا نرى انه ليس من الضروري ان يكون ابن عبد ربه او ابن قتيبة قد تأثر بالجاحظ خاصةً او بكاتب خاص آخر غير الجاحظ ، حيث اننا نرى اكثر الادباء في صدر الدولة العباسية كسهل بن هرون ، وابرهيم الصولي ، وعبد الحميد الكاتب ، وابن المقفع (الى حدّ ما) قد اتبعوا هذا الاسلوب الكتابي المتوازن العبارات وكتبوا رسائلهم الادبية فيه . ولقد

(١ ابن قتيبة ١ صفحة ك (٢ الجاحظ م : صفحة ٤

تقيد ابن عبد ربه بهذا الاسلوب في فرش دور كتبه اكثر مما تقيد في مقدمة العقد نفسه : قال في مقدمة كتاب الفريدة في الحروب :

«قد مضى قولنا في السلطان وتطييبه ، وما على الرعية من لزوم طاعته ، وادامة نصيحته ، وما على السلطان من العدل في رعيته ، والرفق باهل مملكته ، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه ، في الحروب ومدار امرها ، وقود الجيوش وتدبيرها ، وما على المدبّر لها من اتخاذ الفرصة ، والتماس الغرة ، واذكاء العيون ، واقتناء الطلائع ، واجتناب المضايق ، والتحفظ من الدسيسات ، واحكام معرفته ، وطول تجربته لمقاساة الحروب ، ومعاناة الجيوش ، وعلمه ان لا درع كالصبر ، ولا حصن كالايمان .» (١

وقال في مقدمة كتاب السلطان :

« السلطان زمام الامور ، ونظام الخفوق ، وقوام الحدود ، والقطب الذي عليه مدار الدنيا ، وهو حمى الله في بلاده ، وظله الممدود على عباده ، به يمتنع حريمهم ، وينتصر مظلومهم ، وينتقم ظالمهم ، ويأمن خائفهم .» (٢

وقال في فرش كتاب الوفود :

« . . . فانما مقامات فضل ، ومشاهد حفل ، يتخير لها الكلام ، ويتهذب الالفاظ ، ويتجزل المعاني ، ولا بدّ للوافد عن قومه ، ان يكون عميدهم وزعيمهم الذي عن قوته (كذا) يترعون ، وعن رأيه يصدرون ، فهو واحد يعدل قبيلة ، ولسان يعرب عن السنة ، وما ظنك بوافد قوم يتكلم بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم او خليفته او بين يدي ملك جبأر في رغبة او رهبة ، فهو يوطد لقومه مرة ويتحفظ عن امامه اخرى ، افراه مدخرًا نتيجة من نتائج الحكمة ، او مستبقيًا غريبة من غرائب الفطنة ، ام تظن القوم قدموه لفضل هذه الخطة ، الا وهو عندهم في غاية الحذلقة واللسانة وجمع الشعر والخطابة .» (٣

وقال في فرش كتاب الياقوتة الثانية :

« . . . وكرهنا ان يكون كتابنا هذا بعد اشتماله على فنون الادب والحكم والنوادر والامثال ، عطلًا من هذه الصناعة التي هي مراد السمع ، ومرتع النفس ، ونزيع القلب ، وجمال الهوى ، ومملاة الكئيب ، وانس الوحيد ، وزاد الراكب لعظم موقع الصوت الحسن من القلب ، واخذه بمجامع النفس .» (٤

وانا لنلاحظ هذا الاتزان في عبارته ، في الجمل والفقرات الصغيرة التي نثرها في العقد عند تعليقه على خبر او تعرّضه لرأي كان يقول مثلًا :

---

١) ابن عبد ربه ١ : ٢٥
٢) ابن عبد ربه ١ : ٤
٣) » » ١ : ١٢٤
٤) » » ٣ : ٢٢٦

« ومن الشعر المطبوع الذي يجري مع النفس رقة ، ويؤدي عن الضمير ابانة . . . » (١ او « وهذا في قديم الشعر وحديثه ، وطارف الكلام وتليده ، اكثر من ان يحيط به وصف او يأتي من ورائه نعت . » (٢ او « وما سمعت بالطف معنى ، ولا اكمل ادباً ، ولا احسن مذهباً ، في مسائلة الملوك من شبيب بن شبة وقوله لابي جعفر اصلحك الله ، اني احب المعرفة واجلك عن السؤال : فقال له فلان بن فلان » (٣

اما اذا اقتضى الامر شيئاً من الشرح او الاستدلال او الاسهاب فاننا نرى ابن عبد ربه يتفلّت شيئاً ما من قيود هذا التوازن بين العبارات ، فيرسل الكلام في بعضها ويراعي التوازن في البعض الآخر . قال :

« وما رأيت اعجب من ابن قتيبة في كتاب تفضيل العرب انه ذهب فيه كل مذهب من فضائل العرب ثم ختم كتابه بمذهب الشعوبية فنقض في آخره كل ما بنى في اوله . » (٤

وقال في امر اشعر نصف بيت قالته العرب :

« وهذا ما لا يدرك غايته ولا يوقف على حدّ منه والشعر لا يفوت به احد ولا يأتي بديع الا اتى ما هو ابدع منه وقد در القائل اشعر الناس من ابدع في شعره . » (٥

وقال :

« وما سمعت في صفة الدنيا والسبب الذي يحبها له الناس لاجله بابلغ من قول القائل . . . فذكر أن الناس بنو الدنيا وما كان الانسان منه فهو محبّب اليه واعلم ان الانسان لا يحب شيئاً الا ان يجانسه في بعض طبائعه وان الدنيا جانست الانسان في طبائعه كلها فاحبها بكل اطرافه . » (٦

وقال في باب اخبار خلفاء بني امية في الاندلس :

« ثم ولي الملك القمر الازهر ، الاسد الغضنفر ، المسمون النقية (٧ ، المحمود الضريبة (٨ سيد الخلفاء وانجب النجباء عبد الرحمن بن محمد امير المؤمنين . . . فتولى الملك وهي جمرة تتقد ، ونار تضطرم ، وشقاق ونفاق ، فاخمد نيرانها وسكّن زلازلها ، وافتتحها عوداً كما افتتحها بدءاً سيّبه عبد الرحمن بن معاوية رحمه الله وقد قلت وقيل في «اشعاره» [لعلّها زائدة] غزواته كلها اشعار قد جالت في الامصار وشرّدت في البلدان حتى اقتست وانجدت واعرقت ولولا ان الناس مكتفون بما في ايديهم منها لاعدنا ذكرها او ذكر بعضها ولكنا سنذكر ما سبق الينا من مناقبه التي لم يتقدمه اليها متقدم ولا اخت لها ولا نظير . » (٩ . وقال ايضاً :

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ١٧٣ ٢) ابن عبد ربه ١ : ٢١٤

٣) » » ١ : ٢٨٨ ٤) » » ٢ : ٨٩

٥) » » ٣ : ١١٨ ٦) » » ١ : ٢٧٣

٧) وردت خطأ « التقية » والنقيبة بمعنى النفس والعقل .

٨) الضريبة بمعنى السجية والطبيعة ٩) ابن عبد ربه ٢ : ٢٦٣

« ومن مناقبه ان الملوك لم تزل تبني على اقدارها ويقضي عليها بآثارها ، وانه بنى في المدة القليلة ما لم تبن الخلفاء في المدة الطويلة ، نعم لم يبقَ في القصر الذي فيه مصانع اجداده ومعالم اوليته بنية الا وله فيها اثر محدث اما تزييد او تجديد ، ومن مناقبه انه اول من سمي امير المؤمنين من خلفاء بني امية بالاندلس ومن مناقبه التي لا اخت لها ولا نظير ما اعجز فيه من بعده وفات فيه من قبله من الجود الذي لم يعرف لاحد من اجواد الجاهلية والاسلام الا له .»(١

ويظهر من بعض المواضع في عقده انه كان يرغب في اللفظ السهل قال : « ومن قولنا نمدح رجلًا باستسهال اللفظ وحسن الكلام .»(٢ وانه كان يرغب عن التكلف ، قال : « فانما مدار كل شيء على طبعه والتكلف مذموم من كل وجه .»(٣ وانه كان يحب الايجاز ويرى الفضل كل الفضل فيه قال : « اذ كان اشرف الكلام كله حسناً واوقعه قدراً واعظمه من القلوب موقعاً ، واقله على اللسان عملًا ، ما دلَّ بعضه على كله ، وكفى قليله عن كثيره ، وشهد ظاهره على باطنه ، وذلك ان تقلّ حروفه وتكثر معانيه .»(٤ وانه كان يرى للاطناب موضعاً ، ولكنه يفضل الاختصار في الجملة عليه قال : « ومن كلام العرب الاختصار والاطناب والاختصار عندهم احمد في الجملة ، وان كان للاطناب موضع لا يصلح الا له .»(٥ وقد جمع اكثر هذه الامور التي تمثل رأيه في الانشاء بقوله عن كلام الاعراب : « اشرف الكلام حسباً واكثره رونقاً ، واحسنه ديباجة ، واقله كلفة ، واوضحه طريقة . »(٦

والخلاصة انه يستدل مما ذكرنا عن رأي ابن عبد ربه في هذا الموضوع ، ومن هذا القدر القليل من نثره الذي ذكرنا لك بعض نماذج منه [اذا جاز لنا الاكتفاء بها] على ان ميزات اسلوبه الكتابي تشمل الايجاز في الكلام ، وسلامته من الفضول ، وبراءته من التعقيد ، وبعده عن التكلف ، وسهولة الفاظه ، وعذوبتها ، واتزان عباراته ، وحسن سبكها ، وعدم استعمال الغريب من المفردات . وان ابن عبد ربه في نثره ، كما نراه في شعره ، رقيق اللفظ جزله ، واضح التعبير ، سائغ الفهم .

(له صلة)

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٦٣
٢) ابن عبد ربه ٤ : ٢٠٠
٣) » » ١ : ٢٠١
٤) » » ٣ : ٢٠٢
٥) » » ٣ : ٢٠٣
٦) » » ٣ : ٩٣